عندما يستحضر الكاتب تجاربه الحياتية:

محمود كامل في "صور قطار العمر" حكايا لا تنتهي

بسام جميدة

أديب وصحفي سوري

يُفرغ علينا الكاتب المصري محمود كامل مصطفى من خلال كتابه الأول "صور قطار العمر" ما في جعبته من ومضات قصصية هي بعضٌ من حصيلة تجاربه الحياتية المليئة بالحكايا الوجدانية التي صاغها بطريقة سهلة ومشوقة، فيها الكثير من الحس العالي بتفاصيل الحياة اليومية وشجونها.

يقع الكتاب ققي ستة فصول حملت عناوين (خيال الصور – قطار العمر – رجل وامرأة – إنسانية – مواقف - شخصيات) جاءت أغلب ومضاته بصيغة المتكلم المفرد، لتطل من خلالها شخصية الراوي

واضحة وهي تتحدث عن نفسها مجسدة همومه ومعاناته، وأفراحه وأتراحه وغالبية مفردات حياته بدقة متناهية..

أبطال ومضات محمود كامل شخصيات من لحم ودم تنبض بالحياة، تعج بالتفاصيل كما أسلفت، ارهقتها الهموم حيناً، وأوجعتها الذكريات، تفرح وترقص وتمشي وتركض، هي كذلك اقرأها ..

بداية المشوار

في فصل "خيال الصور" الذي يتضمن /28 ومضة/ يطلق الكاتب العنان لخياله فيسترجع الكثير من الحوادث التي مرت معه...بحلوها ومرها، هنا يستفيد الكاتب من مخزونه التراكمي، والكاتب المتمكن من أدواته هو من يستطيع أن يستفيد من ذلك المخزون ويخ\حوله من نبض يعايشه إلى نصوص تعج بالحياة

ولوحات قصصية معبرة عما يختلج في نفسه، بل ويتقن في الإمساك بتلابيب اللحظات العابرة في حياته.

ففي ومضة **"قنوط : تاه في الصحراء، أشرف علي الموت من الرمض، سجد لأجله ظله طلبا للاستسقاء."** يكتب محمود كامل بضمير الغائب فلا نرى سمات الشخصية التي ضاعت في الصحراء واضحة، لكنه جسد اللحظة الفارقة عندما أشرف على الموت من شدة الحر، فسجد له ظله طلبا للاستسقاء، وتوظيف الظل هنا له معان كثيرة، كما هو توظيف انعكاس الصورة على صفحة النهر في ومضتي " **حنين.. نظر إلي انعكاس صورته علي صفحة النهر، حسبها أخيه التوأم الذى غرق منه في نفس المكان** " و ومضة " **من انت.. نظرتُ في مرآة مكسورة، وجدت نصفي والنصف الآخر لم أتعرف عليه**" وكذلك القرين الطيب في ومضة "**نجاة .. يقارعني قريني الطيب، ينقذني من الوقوع في الخطيئة رغم أنفي**"

والطير الجارح في ومضة **"رؤية... كلما حاولت أن أدلي بدلوي ومكنوناتي، أتي طيري الجارح ليأكل الطعام من فوق رأسي "** والمرآة والمنظار المحدب والحلم الأول وربطة العنق في العديد من الومضات، حيث يتضح مهارة الكاتب في الاتكاء على هذه الدلالات وتوظيفها لبناء نصه بحيث تكون العمود الاساس والمتين، وتكون بذات الوقت لحظة فارقة تمنح النص أهميته وجاذبيته، فيما يحاول استكمال باقي مفردات النص بطريقة متقنة مستعينا بذاكرته الكثيفة بالمعاني والتفاصيل، لتكون الومضة معبرة ومتماسكة..

ليست هذه الدلالات التي ذكرتها هي ما يميز ومضات الكاتب، بل نلمس فيها تعبير وجداني عميق لكثير من الحالات النفيسة كما في ومضة **" معمر"** و**"انفراج"** و**" حيرة"** و **" شرف"** التي جسدها من خلال تجاربه الحياتية في خضم عمله الابداعي.

كل ومضات هذا لفصل هي اجترار للماضي والذكريات ومناجاة للذات ورغم إن جميعها جاءت بضمير المتكلم، فقد غلب عليها صفة الذكورية، ووحدها ومضة " **استدراك .. فاتها قطار الزواج، نظرت في المرآة وهي عارية، أعجبتها مفاتن جسدها، صورت نفسها** " التي صاغها بضمير الغائب كانت تتحدث عن معاناة أنثى عانس وجدت نفسها تعاشر وحدتها وهي عارية، وتصور جسدها دون أن تعرف المغزى من التصوير هنا، والتفسير المنطقي لهذا الفعل إنها تسعى للبقاء في ديمومة الشباب وهو توثيق ذاتي لمرحلة الشباب في الذاكرة والتصوير ربما يأتي هنا كتعبير مجازي للفعل، لأنها بالتأكيد تعي مخاطر أن يكون التصوير واقعياً، وكذلك مخاطر الاحتفاظ بمثل هذه الصور، إلا إذا كانت تعاني من عقدة نفسية ما.

ردود أفعال الشخصيات وحركاتها هنا، وحتى الأفعال التي تقوم بها تبدو قاسية نوعا ما وربما عنيفة إن صح التعبير والمفارقة واضحة حيث تبدو التعابير صادقة في غالبية النصوص كما في **"رؤية – قنوط – حيرة – ونس - عشرة" ..**

الزمن قد لا يبدو للوهلة الأولى سريعا في كل الومضات، حيث تستلزم الومضة وجود اللحظة الفارقة السريعة التي تمثل الحدث، وهي حالة ضرورية لأي نص ومضي، ويبدو للمتلقي إن الزمن في بعض الومضات طويل، لكنه ليس كذلك عندما يتابع القراءة، ويتمعن بها، حينها يدرك القارئ أن الكاتب اجاد التقاط تلك اللحظة المدهشة في حياة الشخصية وبزمن معقول جدا.

الأمكنة في غالبية الومضات واضحة وجلية ويمكن للقارئ أن يستشعر بوجوده فيها ويعيش اللحظة

وردة الفعل وشعور الشخصية وكأنه وسط الحدث، وفي ذات المكان، فهناك الصحراء في ومضة **"فتوة"** والنهر في ومضة **"حنين"** وغيرها..

والومضة التي لا يبدو فيها المكان واضحا صريحا بين تفاصيل الكلمات يستطيع القارئ أن ينغمس في المعاني، ويخلق الجو المناسب عبر الحدث أو التوقيت إن كان ليلا أو نهارا أو في شارع أو داخل غرفة أو مكتب..

لواعج النفس

ضمن الفصل الثاني من الكتاب الذي عنونه بـ **"قطار العمر"** تأتي غالبية الومضات كتعبير وجداني ونفسي معبر عن لواعج يمر بها وهي لحظات إنسانية معبرة، لذلك نقرأها مروية بضمير الغائب الذي يمنح الومضة القصصية بعدا أكبر وعمقا في الحدث..

فالخوف من الموت يهيمن على النفس البشرية، وكلما راود الانسان مرض يطل الموت من بين عينيه ليتساءل عن صورة النهاية التي سيكون عليها، وعبر الكاتب عن هذه اللحظة في ومضة

" مصير.. كلما أشرفت علي الموت، كان القدر يتدخل لإنقاذي، فكيف تكون النهاية!!؟" وعندما شاغلته امرأة أخرى عن وطنه وأخذته بعيدا عنه، عاد إلى صوابه ليلتمس عذرا من وطنه الذي كان بعيدا عنه، ربما ليس جسديا بل روحيا، كما يبدو في ومضة **"شروق.... عدت أستسمح وطني بعد أن غرَّبت تلك المرأة الأخرى روحي."**

ويزداد شعور الشخص بالفخر والزهو والبهاء كلما التف حوله اولاده واحفاده، وهو شعور إنساني مفرح أوصله الى قمة النشوة كما في ومضة "

انتماء... كلما ناداني أحد أحفادي "جدو"، راودني إحساسٌ بأنني رئيس وَلِي شعارٌ، فأقدم له التحية."

ونفس المشاعر تتراءى وهو يحاول من خلالها أن يعيش معهم بتلك الروح الطفولية البريئة عندما يجسدها في ومضة " **عزوة... كلما زارني أحفادي: أجدهم كالجياد يلهون ويلعبون.. فإذا انصرفوا. أقول: "ردوهم علّي أصهل معهم."**

ويسير الكاتب في ومضات هذا الفصل صعودا وهبوطا في الذكريات والمشاعر ويتنقل ما بين الفرح والحزن، دون أن ينسى أنه يمتلك الارادة على مواجهة الواقع، والنفس بثقة وصواب ولا يأبه للسنوات التي تتسرب من بين يديه، لذلك يخاطب نفسه بواقعية في ومضة " **آخرة... بنبت مدفنا جديدا، كلما زرتُه أنزل فيه.. أبحث عني!!"**

ثم يمضي مع ذكريات المراهقة التي يتمنى أن يعود لها عبر ومضة **"مراهقة... في غفوة من سنين العمر، حسبت أنني طفل مدلل يقبِّله كل الناس بلا حرج."** لكنه لا يلبث أن يصور لنا مشهدا دراميا مؤثرا من وحي الواقع في ومضة **" أفول.. بحثت عن الألوان كي أحتفل بعيدي الخامس والسبعين، فلم أجد غير سواد دموعك علي صدري."**

ويستمر في عرض هذه لمشاهد التي يلتقطها بعين خبير ويقدمها بطريقة جميلة، وهو يبحث عن الأمكنة عندما راوده الحنين، وزادت حدة الاشواق في ومضة **" اطلال.. راودني الشوق لرؤية بيتنا الذى نشأت به، فلم أجدني. "** لكنه لم يجد أي أثر لنفسه هناك، كل شيء قد تغير...ويستمر تحت تأثير دراما السنين وهو يتلمس التجاعيد التي ترك الزمن أثرها على محياه، حينها يستجدي الذكريات وهو يسئل الزمن، ليجد الحنين وقد جرفه إلى شاطئ الذكريات

ولا شيء سواه كما في ومضة **"واقع.. أنظر في المرآة، ترهبني تضاريس السنين.. وأجد نفسي مرغما بين براثن خريف العمر. أستجديه."**

للكتاب بقية

تلك قراءة سريعة لعدد من فصول الكتاب **"صور من قطار العمر"** ولاتزال هناك فصولا أكثر تشويقاً، وتحتاج لوقفات متأنية، ففيها من الواقعية التي يعيشها الكاتب محمود كامل مصطفى ما يجعله قناصا خبيرا في اصطياد اللحظة بمهارة ليدونها لنا، ويعالجها بحس صادق ولحظة نابضة بالحياة، حتى وهو يكتب فصل **"رجل وامرأة"** إذ تتنوع اللحظات والمشاهد والرومانسية الواضحة التي يجسد فيها العلاقة بين زوجين أو عاشقين ب 13 ومضة رائعة، ويتابع انسيابه الممتع في فصل **"إنسانية"** الذي يدل على معناه دون أي شرح زائد لأنه يرصد حالات مليئة

بالحس البشري في لحظات دقيقة كأن يتعامل بها مع العصافير مثلا أو قطة وغيرها.. ولعل أكثرها تأثرا ومضة **"أرزاق... أنثر حبات الأرز للعصافير، من قوت أولادي.. يؤرقني رجع زقزقتهم كلما عادوا.."** ويلامس في بقية الومضات الوجع الذي تعانيه المرأة جراء الفقر والحاجة، بسبب تحولات الزمن الموجع وتغيرات العصر والاحداث التي تمر بها البلاد..

وهنا أترك للقارئ فرصة مطالعة الفصلين المتبقيين **" مواقف – شخصيات"** التي تحمل ومضات موحية فيها الكثير من التشويق والدلالات المعرفية التي جسدها الكاتب من وحي الواقع المعاش دون ان يركن إلى الخيال..

كتاب صور قطار العمر الصادر عن دار حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، يستحق القراءة بتأن ودراية لكي يستشعر القارئ مدى الحس المرهف

الذي يحمله الكاتب بداخله وعالج من خلاله مواضيع كثيرة بجرأة واضحة ليقوم بدوره ككاتب مؤمن بأهداف رسالته في رصد الواقع ومعالجته، ليس من أجل التأثر فقط، بل والتأثير به، لعله بذلك يكون قد ساهم في إيصال ما يريد من أفكار للقارئ، ولفت نظر من يتابع إلى جل ما هو مسكوت عنه، وبذلك يكون قد قام بدوره كمثقف مسؤول وعليه واجبات تجاه المجتمع وابناء جلدته.